ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

علاقة المتاولة السياسية بالقوى المحيطة بجبل عامل في القرن الثامن عشر ميلادي.

The Political Relations of El- Mtawla with the Surrounding Powers of Jabal Amel in the Eighteenth Century Ad

Salih Ali Al-Shora (Corresponding Author)
The World Islamic Sciences and Education University/ Amman, Jordan
Faculty of Arts and Sciences/ Department of History and Islamic Civilization
Tel: 00962777766181 E-mail: alshora_salih1971@yahoo.com

Ahmad Moh'd Hassan Tarawneh
Princess Sumaya University for technology
King Talal Faculty of Business and Technology/ Coordination Unit Service Courses
Tel: 00962775431712 E-mail: a.tarawneh@psut.edu.jo

Abstract

This research paper is aimed to study and discussion constant and the Variable in the Political Mtawla relationship with Shehabeyeen , Al-Sheikh Daher Al-Omar, and Ahmad Pasha Al- Jazzar in the 18th Century. First, the study addresses the relationship between Al- Mtawla and Shehabeyeen after they have taken over leadership of Druze in Jabal Libnan after the termination of the concerned ruling family. That war was the dominant relationship between the two parties especially when the Shehabeyeen represented the Ottoman ruler in the region. The study then discusses the Mtawla relationship with Al-Sheikh Daher Al-Omar which started cautiously and stressfully then ended with strong alliance. However, it ended when the Mtawla turned down the alliance. The paper concludes with e elaboration of the Mtawla's relationship with Al-Jazzar. That relationship went through a cooperation stage that ended with a continuous war through which Al- Jazzar could put the Mtawla under his authority throughout the 18th century. The conclusion was that the bonds that combined elements of Jabal Amel are religious rather than political ones. The research followed the historical analytical approach.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة ومناقشة الثابت والمتحول في علاقة المتاولة السياسية بكل من: الشهابيين، والشيخ ظاهر العمر، وأحمد باشا الجزار في القرن الثامن عشر ميلادي. وهي تبدأ بالحديث عن علاقة المتاولة بالشهابيين بعد توليهم زعامة الدروز في جبل لبنان بعد انتهاء حكم الأسرة المعنية، وقد كانت الحرب هي اللغة الثابتة التي سيطرت على علاقة الطرفين خاصة وأن الشهابيين مثّلوا الوالي العثماني في المنطقة. ثم تعرّج إلى الحديث عن علاقة المتاولة بالشيخ ظاهر العمر والتي بدأت مترقبة متوترة ثم آلت إلى التحالف الوثيق، ولكنها انتهت حينما تخلى المتاولة عن هذا الحلف. وتنتهي بالإسهاب في علاقة الجزار بالمتاولة والتي مرت بمرحلة هدوء وتعاون لكنها انتهت بالحرب المتواصلة التي تمكن الجزار فيها من اخضاع المتاولة لحكمه طوال فترة القرن الثامن عشر. والنتيجة كانت أن الروابط التي جمعت بين مكونات جبل عامل هي روابط دينية أكثر منها سياسية. علماً بأن البحث اتبع المنهج التاريخي والتحليلي.

كلمات مفتاحية: المتاولة، الشهابيون، ظاهر العمر، أحمد باشا الجزار، جبل عامل.

Keywords: Mtawla; Shehabeyeen; Al-Sheikh Daher Al-Omar; Ahmad Pasha Al- Jazzar; Jabal Amel

المقدمة

تغلبت لغة المصالح على جميع أنواع العلاقات التي شكلت المشهد السياسي للقوى المختلفة في جبل لبنان إبان خضوعه للحكم العثماني، فكانت هي المسيطرة على التجاذبات السياسية للتجمعات السكانية ومراكز نفوذها، وإن كان التحيز العصبي (قيسي، يمني) هو الذي طفى على السطح مقارنة بغيره، مقروناً بمصلحة اثبات الذات لكل من الأطراف المتنازعة. فالحوادث التاريخية التي رصدت في المنطقة تشير إلى أن التحالفات كانت تتوطد بين أهل السنة، والشيعة، والدروز بين فترة وأخرى، وقد تتأزم في أوقات أخرى بناءً على القاعدة ذاتها، وما ينطبق على عموم العلاقات الكائنة بين مكونات المشهد السياسي اللبناني يمكن أن ينسحب على خصوصها، فقد تتجاذب مراكز النفوذ بين أبناء الطائفة الواحدة بناءً على مكاسب مشتركة وقد تتأزم أيضاً بناءً على انتفائها أو الشعور بإمكانية فقدانها. وهذا لا ينفي أن العامل الأثني الديني كان يتقدم في بعض الأوقات على غيره من العوامل بسبب الشعور بالقرب أو الاغتراب من المكونات الدينية المحيطة، ولكنه هو أيضاً كان يرتبط باجتماع منفعة. ويظهر ذلك جلياً في التحالفات التي كانت تبرم بين المكونات الدينية المتنوعة، فلا غرابة أن تجد حلفاً يجمع بين المتاولة الشيعة والزيدانيين السنة، أو حلفاً آخراً يجمع بين الدروز والسنة والشيعة معاً. لذلك خضعت علاقة المتاولة بالقوى المحيطة، للمعايير المذكورة آنفاً، وإن كانت عدائية في أغلب أوقاتها تجاه السلطة المركزية التي تمثل الدولة العثمانية أو من ثلها من ولاة لها في دمشق أو صيدا.

نبذة تعريفية بالمتاولة

المتاولة هي: جمع متوالي، على غير قياس، مشتقة من تولى، أي اتخذ ولياً ومتبوعاً من ولائهم لآل البيت النبوي الشريف، حيث تميزوا عن بقية الشيعة بجملة كانوا يرددونها في حروبهم (مُت ولياً لعلي) (Ahmed Reza, 1910). وهم طائفة من الشيعة الأثنى عشرية، ويقيمون في جبل عامل، أو جبل عاملة، لذلك أطلقت عليهم بنو عاملة، نسبة إلى عاملة بن سبأ، وهو الحرث بن **عدي، وعاملة نسبة إلى اسم** أم الحرث (عاملة القضاعية) (Al-Badairi, 1959). وينسبهم البعض إلى قبيلة عاملة القحطانية التي استقرت في الشام بعد سيل العرم، ونزلت بالقرب من دمشق الذي دُعي باسم جبل عامل، نسبة إلى قبيلتهم (Al-Zein, 1973). ويظهر جلياً بأنهم لم يندمجوا بالمكونات الرئيسة للمنطقة بسبب تغلغل الفكر الشيعي بينهم، لذلك لجأت نسبة كبيرة منهم إلى إيران فراراً بمعتقداتهم، بل ويعتقد البعض بأنهم شكلوا النواة الأولى للتشيع فيها(Muhajir, 1989). ويلحظ كرد علي في كتابه خطط الشام ذلك الاغتراب الذي عاشوه المتاولة في جبل عامل حينما يؤكد بأنهم: « هم الذين دخلوا غمار تلك الحروب من شيعة جبل عامل وبعلبك وجبل لبنان، دون شيعة حلب وحمص وحماه ودمشق(Kord Ali, 1983). أي أن اللقب التصق بالشيعة المقاتلين أكثر من غيرهم. وقد ورد في كتاب كرد علي نفسه نقلاً عن المحبي في «خلاصة الأثر» ما يلي: « والظاهر أن تلقبهم بهذا اللقب في جبل عامل لم يتقدم على القرن الثاني عشر للهجرة/السابع عشر ميلادي لأن المؤرخين قبل هذا القرن لم يعرفوا لهم هذا اللقب ولم ينبزهم به أحد منهم وكانوا أذا أرادوا ذلك تجنبوا الشيعة، وقالوا الرافضة. ولكن من تأخر عن القرن المذكور لم يُلزم بتثبيت التسمية كما فعل المرادي في «سلك الدرر» فإنه لم يذكرهم في جبل عامل إلا باسم المتاولة وفقا للشهرة في عصره، وقد أكدت السالنامات التركية أن ابتداء ظهور المتاولة جاء تحديداً سنة 1100للهجرة (Kord Ali, 1983). ولكن الأمر الذي يكاد أن يجمع عليه المؤرخون هو أن أصل سكان جبل عامل تعود إلى العصبية اليمانية (Al Safa, 1981).

ورد أن أصول المتاولة هي عربية خالصة وهذا ما أكده «هنري Henri“ حينما يقول أن المتاولة في بلاد الشام وإن انتموا للمذهب الشيعي الإمامي الأثنى عشري،

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

وكان المتاولة العامليون وآل علم الدين الدروز يمثلون الحزب اليمني بينما ترأس المعنيون الدروز ومن بعدهم الشهابيون الحزب القيسي(Al-Zein, 1973). وخضع جبل عامل كغيره من الولايات السورية لنظام التلزيم، وتناوبت على حكمه أُسر إقطاعية عاملية عديدة، كانت تخضع مباشرة وبشكل هرمي إلى أمير مقاطعة جبل لبنان، سواء كان من الأسرة المعنية أم الشهابية، أو كانوا يخضعون لوالي دمشق أو لسنجق القدس أو عكا (Farahat, 1981). لذا ظلت العلاقة التي تجمع بين مكونات جبل عامل والقوى المتحكمة في منح الالتزام أو منعه تدور حول المصلحة الاقتصادية، فكان الأقوى والأقرب إلى السلطة هو الذي يفوز بهذا الامتياز، وقد استمر الحكم الإقطاعي في جبل عامل من عام 1516م- 1865م، مع وجود فترة انقطاع على أثر مجيء حملة إبراهيم باشا إلى سوريا عام 1831م (Farahat, 1981).

علاقة المتاولة بالشهابيين

انتهى الوجود السياسي للأسرة المعنية مع وفاة الأمير أحمد المعني عام 1697م. وانتقلت إمارة جبل الدروز إلى الأسرة الشهابية بقرار من مجلس أعيان كان يتكون من وجهاء الأسر الدرزية في الشوف، وبتأييد من والي صيدا الذي كلف الأمير بشير الشهابي بالإمارة نيابة عن نسيبه الأمير حيدر الذي لم تجر عليه المواسي بعد، ولم يبلغ سن الرشد. وقد سيطر القيسية في جبل لبنان، على المشهد السياسي وكانت علاقتهم بحاكم صيدا قوية، فاشتد عداؤهم للمتاولة اليمنية (Rafeq, 1993; Abdel Aziz, 1985). ويبدو أن المتاولة أرادوا، بعد انتهاء الأسرة المعنية، جس نبض وكلاء الدولة الجدد المتمثل بالأسرة الشهابية في بداية الأمر، لذلك تجرأ الأمير المتوالي الشيخ مشرف بن علي من آل الصغير فثار على أرسلان باشا المطرجي والي صيدا عام 1700م، فوكّل هذا الأمير بشير الشهابي بقتاله، ووعده مقابل ذلك بحكم صفد، ومقاطعات المتاولة، فقام الأخير بإرضاء والي صيدا بحملة كبيرة على جبل عامل، فتمكن من مفاجأتهم وأسر عدداً من مشايخهم وعلى رأسهم زعيمهم الشيخ مشرف وأخيه محمد، وقتل بعض أعوانهما، وساقهما إلى الوالي

لكنهم في الأصل هم من عناصر عربية وبالتحديد سورية، فلم يختلطوا بعناصر أخرى أجنبية داخل الجبل'' (Henri, 1921). أي ظلوا بعيدين عن العناصر الأجنبية التي وافقتهم في المعتقد، إلا من هاجر منهم كما ورد سابقاً، فالتزموا بأوامر شيوخهم وأمرائهم من العرب. وقد عُرفت منطقة جبل عامل خلال العهد العثماني باسم «بلاد بشارة»/ مختلف في أسباب التسمية، وحين طغى المذهب الشيعي على تلك البلاد وطغت الحرب على السلام، أطلق عليها «بلاد المتاولة» (Al-Zein, 1973; Ahmed Reza, 1945; Suleiman, 1983) أما بالنسبة لحدود جبل عامل، فتبتدئ من الشمال، بمصب نهر الأولي شمالي صيدا، فتدخل مدينة صيدا، ومن الجنوب نهر القرن، ومن الشرق نهر الأردن، الذي يفصل بينه وبين الجولان، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط (Al-Zein, 1973; Suleiman, 1983) وتقسم إلى قسمين بشارة الشمالية، وبشارة الجنوبية، ويفصل بينهما نهر الليطاني، وتتكون الشمالية من (الشقيف، الشومر، التفاح، جزين) ويحكمها آل صعب، وآل نكد، وتعرف الآن بناحية جباع، أما الجنوبية فتتكون من (تبنين، هونين، قانا، معركة)، وتحكم من قبل آل الصغير، ويتألف منه الآن قضاء صور، ومرجعيون (Ahmed Reza, 1910; Rafeq, 1993). ويبلغ إجمالي مساحة جبل عامل ثلاثة آلاف (3.000)كيلو متر مربع ، ويدين سكانه بالإسلام على مذهب الشيعة الإمامية بينهم عدد قليل من المسلمين السُنّة في الثغور، وعدد من النصارى في الداخل وقد تمتع المتاولة بحكم ذاتي تحت قيادة شيوخهم، واقتصرت علاقتهم بالباب العالي على تخفيف الضريبة السنوية المفروضة عليهم من المال الأميري (Al-Sabbagh, 2012; Al-Awra, 1936; Cohen, 1973; Charles-Roux, 1928.) . وتميزت مناطق جبل عامل بالمنعة والقوة وذلك لكثرة عدد قلاعها وصلابتها، وتمرس أهلها بالحرب، خاصة إذا أضفنا إلى قوتهم قوة حلفائهم الشيعة في مناطق البقاع وبعلبك والهرمل(ترحيني، الشيخ أحمد، 1983. كان للصراع القبلي (اليمني، القيسي) دوراً مهماً في التوجه السياسي في جبل عامل بعد أن تمكن «آل علي الصغير» الوائليين من حكم بلاد بشارة،

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

حيث نصب عليها متسلماً من قبله هو الشيخ محمود أبو هرموش، بينما تشتت آل الصغير وحلفاؤهم تاركين حكم الجبل للشهابيين، فمثلت معركة النبطية كسراً مفصلياً لجميع زعماء المنطقة (Basili & Constantine, 1989). وقد ظل المتاولة يلملمون شعثهم في كل مرة، ويعيدون الكرة والتحدي مرات ومرات، وظل الرد من الشهابيين ثابتاً بتجهيز الحملات الواحدة تلو الأخرى على جبل عامل لإخضاعه، وقد جسد عهد الأمير ملحم حيدر الشهابي (م1754 – 1732)، هذه الحالة، حيث استهل حكمه بإظهار طموحه للتوسع نحو مقاطعات جبل عامل، ففي عام م1734 طلب من سليمان باشا العظم والي صيدا أن يقطعه بلاد بشارة، وكان زعماؤها، من آل الصغير قد خرجوا عن طاعة الوالي وامتنعوا عن أداء الأموال الأميرية إليه، فأقطعه إياها، فقام الأمير ملحم بحملة على هذه البلاد فحشد له زعماؤها في بلدة (يارون) فهزمهم، وفرّ آل الصغير إلى القنيطرة (Ismail, 1975). ويذكر ''دي لان De Lane'' قنصل فرنسا بصيدا عام م1734 هذه الواقعة في رسالة وجهها بتاريخ 20 آب من العام نفسه إلى ''الكونت دي موريباس C. De Maurepas'' وزير الدولة الفرنسية، فيقول: ''إن الصدر الأعظم حانق بسبب رفض مشايخ المتاولة دفع الضرائب وبعض الأموال المترتبة عليهم له ولحكامه، وقد كلف سليمان باشا (والي صيدا) وأمير الدروز، (أي الأمير ملحم) مهمة حصار قلاعهم وتصفيتهم جميعاً، وهكذا دخل الأمير عند تلقيه هذا الأمر، بلاد المتاولة، بجيش مقداره خمسة عشر ألف (15.000) مقاتل حيث نشر القتل في كل مكان حلّ فيه''.(Ismail, 1975)

لم تعد هجمات الشهابيين على جبل عامل منحصرة بالتوسع والسيطرة على موارد الجبل الاقتصادية فقط، بل دخلت طوراً جديداً ينبع من الالتزام منهم بالعهود التي قطعوها لولاة الدولة العثمانية الذين حكموا المنطقة والتي توجب عليهم القتال لصالح هؤلاء الولاة دون منّة كما يقول العورة (Al-Awra, 1936). ولم يقف العامليون بدورهم، إزاء تلك الهجمات يائسين مستسلمين، بل استعدوا للأمر، واتحدوا فيما بينهم وعقدوا المعاهدات مع جيرانهم، كالتي أجروها مع الشيخ ظاهر العمر الزيداني الذي سجنهما، وأطلق يد الأمير مقابل ذلك في صفد ومقاطعات جبل عامل (Basili & Constantine, 1989; Rizk, 2005). لم يكن للأمراء الشهابيين حكماً ثابتاً منتظماً في جبل عامل، فطوراً يخضعوه مباشرة لهم ويأخذوا منه الالتزام، وطوراً آخراً يحولون الالتزام مباشرة إلى والي صيدا، وفي كلا الحالتين كانت الحرب سجال بين الطرفين، وعلى الرغم من أن كلاً من الأمراء الشهابيين كان يطمح إلى أن يتولى حكم هذا الجبل، بضمان من والي صيدا، فغالباً ما كانت مهمتهم تنحصر في جباية الأموال والضرائب المترتبة على العامليين. ويبدو أن الانتعاش الاقتصادي الذي تمتع به جبل عامل في ذاك الوقت كان هو العامل الأبرز في دفع الشهابيين لخوض حروبهم ضد المتاولة، وهذا يبدو منطقيا في النتيجة التي توصل لها عمر عبد العزيز والمتركزة في قوله: «نجد أن الأمراء الشهابيين، يكثرون من غزو المتاولة لأن الأمير بشير، بحاجة إلى زيادة نفوذه في الأمر... وأفادت مثل هذه الحملات، بتكتل مشايخ الأسر القيسية من وراء الأمير الشهابي تجاه العدو المشترك، المتاولة .. والسبب الآخر هو... الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به منطقة جبل عامل ... فطمع الشهابيون بموارد المتاولة، وكان هذا سبباً، في حملاتهم عليهم» (Abdel Aziz, 1985).

تسلّم الأمير حيدر حكم الإمارة الشهابية عام م1706، وكان أول عمل قام به هو محاولته السيطرة على جبل عامل، وكان بشير باشا الذي أصبح والياً على صيدا بعد أرسلان باشا، قد أعاد الشيخ مشرف إلى حكم مقاطعته في بلاد بشارة، بعد أن أطلق سراحه سلفه، أرسلان باشا، والتمس الأمير حيدر من بشير باشا حكم جبل عامل بعد أن أغراه بالمال، فأقطعه أياه، فزحف الأمير حيدر عام م1707 على جبل عامل بجيش قدّره بعض المؤرخين إثنى عشر ألف (12.000) مقاتل (Yazbek, 1983). وكان آل الصغير قد اعتصموا، مع حلفائهم من آل منكر حكام إقليمي الشومر والتفاح وآل صعب حكام الشقيف في بلدة النبطية، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الأمير الشهابي واحتلاله للبلاد،

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

منه إلى ''الدوق ديغويون'' Duc d'Aiguillon بتاريخ 28 حزيران 1772 بأنه ''الشيخ الكبير الذي اشتهر في كل سوريا بشجاعته'' (Ismail, 1975).

علاقة المتاولة بالشيخ ظاهر العمر

قام في عكا وصفد حاكم طموح وهو الشيخ ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، المعروف بظاهر العمر، وقد تسلم تلك الديار من والي صيدا بشير باشا في أول عهده بالولاية عام 1706م وأخذ يرقب، بعين حذرة ويقظة، ما يجري في شمال بلاده وجنوبها. ففي مصر كان علي بك الذي يحلم بالتوسع شمالاً، نحو بلاد الشام، ويطمح للتعاون مع حاكم قدير في فلسطين يسهل له دخول تلك البلاد، ويسانده في هذا الطموح قائد جيشه محمد بك أبو الذهب، وفي جبل عامل وجد مشايخ عانوا الكثير من الحروب مع الدولة ووكلائها من أمراء آل معن ومن بعدهم آل شهاب، فأضحوا توّاقين للتحالف مع قوة تساندهم وتعزز قوتهم وتشد أزرهم، وهكذا التقى في ساحة فلسطين وعلى امتدادها شمالاً حتى صيدا، ثلاث قوى تكمل بعضها البعض الآخر وهي: قوة المصريين والصفديين والعامليين، وقد بلغ هذا التحالف أوجه عام 1771م مما حدا بدراغون Confederation النائب التجاري للجالية الفرنسية بصيدا، إلى تسميته بـ''اتحاد كونفدرالي'' Confederation بين مصر والشيخ ظاهر العمر والمتاولة ضد السلطان، وذلك في رسالة بعث بها إلى الدوق ديغويون d'Aiguillon وزير الدولة الفرنسية بتاريخ 2 أيار 1771. وصف فيها شكل التحالف السابق الذكر(Ismail, 1975). أما فيما يتعلق بعلاقة ظاهر العمر والمتاولة فقد تقلبت بين مد وجزر، وترقب وحذر، ثم آلت إلى النزاع ثم التحالف الذي تخلى عنه المتاولة في نهاية المطاف، وذلك بسبب تقلب المزاج السياسي للأطراف المتنازعة في جبل لبنان بشكل عام والذي سيطر على المشهد السياسي. كان الطرفان في بداية الأمر يرقبان بعضهما البعض من بعيد، وكلاً منهما منهمكاً في تقوية نفوذه على شتى الصعد خاصة العسكري منها، وما لبث أن بدأ الاحتكاك المباشر بين الطرفين في ستينيات القرن الثامن عشر، عندما دعم كما سيأتي لاحقاً

ظلت مناكفات المتاولة لولاة السلطة العثمانية تتكرر حيناً بعد حين، فقد خرج المناكرة والصعبية على والي صيدا سعد الدين باشا العظيم عام 1743م، فأرسل بدوره الأمير ملحماً لتأديبهم، ودارت بين الفريقين معركة ضارية في جوار قرية (أنصار) انتهت بهزيمة العامليين ولجوئهم إلى داخل القرية، حيث أقدم الأمير ملحم على اقتحامها، ثم عاد بعسكره إلى دير القمر، بعد أن خسر العامليون في هذه المعركة نحو ألف وستمائة (1.600) قتيل، كما تقبّض الأمير على أربعة من مشايخهم (Basili & Constantine, 1989; Chidiac, 1970). وقد هدأت الأوضاع نسبياً بين الطرفين، وانصرف كلا من المتحاربين لشأنه حتى عام 1750م حينما اعتدى المناكرة على إقليم جزين وكان داخلاً في حكم الجنبلاطيين حلفاء الشهابيين، فقتلوا اثنين من أتباع الشيخ بشير جنبلاط حليف الأمير ملحم، فحشد هذا الأخير جيشاً وسار لقتالهم حيث لقيهم في قرية (جباع الحلاوة) فقاتلهم وقتل منهم نحو ثلاثمئة (300) رجل (Al-Awra, 1936 and Al Safa, 1981).

مرت ولاية الأميرين منصور وأحمد الشهابيين (1754 - 1763) ثم ولاية الأمير منصور منفرداً (1763 - 1770)، على الإمارة الشهابية من دون حوادث ذات أهمية بين العامليين والشهابيين، وذلك بسبب الصراع الداخلي بين الأمراء الشهابيين، الذي ضرب عليهم عزلة قيضت للعامليين نوعاً من الاستقلال الذاتي والتصرّف الحرّ، فذهبوا لترميم قلاعهم وحصونهم، خصوصاً وأن الحروب التي خاضوها فتت في عضدهم فانغلقوا على أنفسهم وأصبحوا لا يطمئنون إلا لحكم شيوخهم، وكان عليهم، في الوقت ذاته، أن يزيدوا من قواهم الذاتية من جهة، وأن يبحثوا عن تحالفات عسكرية تتيح لهم الصمود والمنفعة من جهة أخرى، وفي هذا الوقت، قام في العامليين زعيم وحد صفوفهم وجمع كلمتهم هو الشيخ ناصيف النصار من آل الصغير الذي وصفه «شيفالييه دي توليس» ''Chevalier de Taules'' قنصل فرنسا بصيدا في رسالة

أورد فيها قائلاً: '' لقد وصل إلى هنا الأمير إسماعيل وثلاثة من مشايخ الدروز هم: الشيخ علي جنبلاط، والشيخ عبدالسلام العماد، والشيخ كليب النادي، وهؤلاء يعاضدون الشيخ ناصيف، فعملوا على احلال الوفاق بينه وبين الشيخ ظاهر العمر''(Ismail, 1975) وأعتقد بأن حيثيات الصلح وتوقيعه بين الشيخ ناصيف وظاهر العمر، حدثت بعد ذاك اللقاء الذي وصفه المسيو كليرامبو بثمانية أشهر، وتحديداً في 8 كانون أول 1767م'' (Al-Rikini, 1939). وصنفت المعاهدة التي وقعت بين الطرفين على أنها معاهدة تحالف ودفاع أقسم فيها المتاولة اليمين على السيف والمصحف أن يكونوا وملتهم متضامنين مع ظاهر، وأن يدفعوا مال الميري لظاهر وليس لوالي دمشق، وأن يهبّوا إلى مساعدته إذا ما احتاج إلى نجدتهم، وأن يمنع عنهم بدوره، كل ظلم يمكن أن يقع عليهم (Al-Sabbagh, 2012). شكل هذا التحالف بالإضافة إلى قوة علي بك الكبير، قوة كبيرة في وجه السلطة العثمانية وحلفائها، وقد خاض هذه الحلف أكثر من خمس عشرة (15) معركة كان النصر حليفه فيها جميعاً، فأثبتت المتاولة بأنهم الحليف العسكري الأكثر وثوقاً لظاهر العمر حتى سنة 1775م (Al Safa, 1981; Al-Rikini, 1939; Cohen, 1973). وقد كانت أشهر المعارك تلك التي خاضها التحالف الجديد الفتي موجهة ضد الأمير يوسف الشهابي، حينما انتفض العامليون مجدداً ضد حكم الوالي العثماني درويش باشا (والي صيدا) وذلك عام 1771م فرفضوا دفع الأموال الأميرية، وطردوا عمال الوالي من ديارهم، وأظهروا البغضاء للأمير يوسف الشهابي حليف والي صيدا، فأقدموا على مهاجمة بلدة مرجعيون وقرى الحولة فجهّز الأمير يوسف لقتالهم جيشاً قدّر بعشرين ألف (20.000) مقاتل من مشاة وخيالة، ففر المتاولة من وجهه، وأحرق الأمير يوسف القرى المتوالية التي دخلها، فاتصل العامليون بالشيخ ظاهر العمر، يطلبون منه العون والنجدة، فأرسل كتاباً إلى الأمير إسماعيل يطلب منه التوسط باسمه لدى الأمير يوسف لرفع الحرب عن المتاولة إلا أن الأمير يوسف رفض قبول الوساطة، الأمر الذي أغضب ظاهر العمر فجهز جيشه وانطلق إلى كفر رمان فأحرقها، ثم إلى ناصيف النصار تمرد عثمان بن ظاهر العمر ضد ابيه، الأمر الذي حسم المشهد عند ظاهر العمر فأعلن الحرب على المتاولة. وقد اتضح خرق الترقب بين الطرفين في مقولة الركيني التي توضح ذلك حينما أورد أنه '' في 2 حزيران 1766م ركبت عساكر بلاد شقيف وبلاد بشارة وإقليم التفاح على بلاد صفد وعثمان بن ظاهر معهم أيضاً (Al-Rikini, 1939). فما كان من فعل ظاهر العمر إلا أن رد على هذا الهجوم، بهجوم معاكس على قرية البضة المتواليّة وقتل بعض سكانها، واستولى عليها، ثم شن هجوماً آخراً على قرية طربيخا في شهر تشرين أول من السنة نفسها، فاصطدم في هذ الهجوم بناصيف النصار مباشرة وقد انتهت المعركة لصالح المتاولة (Al-Sabbagh, B.T.; Al-Sabbagh, 2012). وقد شكلت هذه المعركة مفصلاً هاماً في العلاقة التي جمعت المتاولة وظاهر العمر، فهي آخر المعارك بينهم، حيث آلت العلاقة إلى تحالف وثيق استمر حتى قبيل نهاية ظاهر. ويعلل الزين سبب هذا التنافر ومن ثم التحالف إلى ''أن ظاهر أدرك عدم قدرته على ضم بلاد عامل بالقوة فأخذهم بالصلح والتحالف'' (Al Safa, 1981; Al-Zein, 1973). ويبدو أن الغايات قد التقت في هذا التحالف، فالمتاولة الذين عانوا فترة طويلة من هجمات المعنيين وبعد منهم الشهابيين بحاجة إلى حليف قوي كمثل ظاهر العمر للوقوف إلى جانبهم في هذه الحرب، وقد مثّل ظاهر العمر للمتاولة القوة المنشودة التي طالما كانوا يبحثون عنها، ورأى فيهم ظاهر العمر الذي يواجه سياسة عدائية من والي دمشق وأتباعه، بأنهم خط الدفاع الأول عن مقاطعة صفد أولاً، كما أنه بحاجة إلى كثافة نوعية في العدة والعتاد للوصول إلى مآربه ثانياً، لذلك فإن موقع المتاولة في جبل عامل شكل حاجزاً منيعاً في وجه ولاة السلطنة العثمانية وحلفائهم المحليين لا سيما الشهابيين في ضوء تقلب الأخيرين المستمر(Terhini, 1983) كانت العلاقة الجامعة بين الدروز والمتاولة في تلك الأثناء جيدة، لذا لعب أمراؤهم دوراً هاماً في الصلح المبرم بين المتاولة وظاهر العمر، وهذا ما تؤكده رسالة من قنصل فرنسا المسيو « كليرامبو Clairambault'' بتاريخ 23 نيسان 1767م إلى وزير الدولة الفرنسية التي

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

من دخول عكا عاصمة ظاهر، فضاقت الأرض بما رحبت بوجهه ففر إلى حلفائه المتاولة في قلعة هونين للوقوف في وجه هذه الحملة، ولكنهم شعروا بعجزهم وعدم قدرتهم على الوقوف في وجه الحملة المصرية فتخلوا عن ظاهر ورفضوا مساعدته (Abu Nahl, 1991) الأمر الذي اضطره إلى الفرار واللجوء إلى قبيلة عنزة، ولم يتوقف تخلي المتاولة عن حليفهم العمر هنا، بل سارع شيوخ جبل عامل إلى استقبال أبي الذهب، وتقديم الهدايا له، فأعطاهم بدوره، الأمان (Al-Sabbagh, 2012; Al-Rikini, 1939; Al-Sabaiti, 1913). وتصدّع الحلف بعد هذه الحادثة، ولم يعد إلى سابق عهده، وتُرك ظاهر العمر ليواجه مصيره فردا (Safi, 2005) ولم يستمر حكم أبو الذهب سوى أيام معدودات، إذ توفي فجأة فانسحبت الجيوش المصرية وعاد الشيخ ظاهر إلى عكا، وتخلى المتاولة عن مساعدته للمرة الثانية، وبعد أن فقد ظاهر العمر كل حليف، انقلب عليه أتباعه فقتله أحدهم (Kord Ali, 1983). ظل المؤرخون العامليون يحاولون تبرير تخلي المتاولة عن حليفهم ظاهر العمر، ونكثهم للعهود التي أبرموها معه بحجج واهية تصب كلها في محاولة المتاولة الحفاظ على جبلهم من التدمير والخراب (Terhini, 1983; Al-Zein, 1973). ولكن هذا لم يشفع لهم تخليهم عن أيمانهم المغلظة التي قطعوها على أنفسهم. وأعتقد بأن نظرة المتاولة إلى انتماءات ظاهر العمر وأتباعه الدينية والتي لا تعني لهم إلا أنه حليف قد انتهى وقته، هي التي سهلت عليهم نقض العهود التي قطعوها على أنفسهم له، بل والإنقلاب عليها خاصة إذا ما عرفنا بأنهم ساندوا أحمد باشا الجزار في القضاء على علي بن ظاهر بعد وفاة أبيه (Al-Rikini, 1939). كما لا بد لي من ترديد ما غصت به بطون الكتب التي التمست الأعذار للمتاولة حينما تخلوا عن مواثيقهم مع ظاهر بالإشارة إلى أن المتاولة شعروا بعجزهم عن مواجهة المستجدات السياسية والعسكرية التي تتلخص في مقتل حليفهم علي بك الكبير سنة 1773م، وبوادر الصلح بين تركيا وحليفتهم روسيا التي تقبع سفنها الحربية في سواحلهم، وتوقيع معاهدة كوتشك قينارجه 1774م (Abu Nahl, 1991). وقد لجأ أبناء ظاهر إلى المتاولة النبطية (تشرين الأول 1771م) حيث كان العامليون قد استقروا بعد أن جمعوا فلول مقاتليهم فبلغت نحو أربعة آلاف (4.000) مقاتل، وانضم اليهم حليفهم الشيخ ظاهر العمر وعزم الجميع على ملاقاة المهاجمين» (Al Safa, 1981. and Al-Zein, 1973)، وما إن وصلت طلائع جيش الأمير يوسف إلى النبطية حتى بادرهم العامليون ورجال الشيخ ظاهر بالقتال، فتضعضعت صفوف الجيش الشهابي، واحتل الخوف صفوف أفراده، فانقض العامليون مع حلفائهم حينها على الجيش المنهزم فأوقعوا في صفوفه خسائر كبيرة، وخاف درويش باشا والي صيدا من لقاء العامليين وحلفائهم ففر من المدينة، وقاد الشيخ ظاهر العمر الهجوم باتجاه الشمال، فدخل صيدا منتصراً حيث مكث فيها مدة، ولم يكتف الشيخ ظاهر بهذه الهزيمة، بل استنجد بالسفن المسكوبية(*) الراسية قبالة سواحل بلاد الشام لحصار مدينة بيروت بحراً، فاستجابت ودمرت بمدافعها بعض أبراج المدينة ثم عاد العمر إلى فلسطين (Brek, 1982; Al-Shihabi, 1969; Al-Ma'louf, 1908; Volney, 1972). وحكم العامليون صيدا في هذه الفترة، فأرسل عثمان باشا والي دمشق يطلب من الأمير يوسف تجهيز جيش لمقاتلتهم، وكتب إلى خليل باشا والي القدس ليسانده، وأمدهما بكل ما يلزمهما من معدات القتال، فتجمع للأمير يوسف نحو عشرين ألف (20.000) مقاتل ضربوا حصاراً حول صيدا مدة أسبوع كامل حتى كادوا ان يسقطوها، لولا أن الشيخ ظاهر استنجد بالسفن المسكوبية الحربية مرة أخرى، التي أطلقت مدافعها على الجيش المحاصر، مما اضطره إلى فك الحصار عن المدينة (Al-Sabbagh, 2012; Volney, 1972).

استمر التحالف بين العامليين، والمصريين، والصفديين، قوياً ومتيناً، حتى عام 1774م حيث دب الخلاف بين محمد بك أبو الذهب الذي خلف علي بك في حكم مصر بعد وفاته، وبين الشيخ ظاهر، فأشهر أبو الذهب العداء والحرب على حليفه الشيخ ظاهر، وهاجم بلاده بستين ألف (60.000) مقاتل، وتمكن من السيطرة على المدن الساحلية في جنوب غرب بلاد الشام، كما تمكن

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

اجتمعوا معاً، فإنهم يشكلون قوة مثالية''(Suleiman, 1983). وقد كانت نية اجتثاث شأفة المتاولة حاضرة في ذهن الوالي الجديد الذي عاصر تحالفهم مع سلفه ظاهر العمر في صراعه ضد السلطان العثماني، والذي أصبح الآن هو يمثله في المنطقة، ولكنه أجّل هذه المواجهة لفترة من الزمن نظراً لانشغاله بالتعامل مع البدو والدروز، الأمر الذي كان يعتبره أكثر إلحاحاً في ذلك الوقت(Cohen, 1973).

بعد أن استقر حكم الجزار ونظم أمور ولايته، وجه أنظاره نحو المتاولة بما أنهم القوة المجاورة المتمردة على الدولة، وغير الخاضعة لأي سلطة تخرج عن نطاق سلطة شيخ المقاطعة. فأرسل لهم يطلب الأموال الأميرية، المؤجلة، فرفضوا، وحشدوا حصونهم بالمقاتلين والأسلحة واستعدوا للقتال. فكانت الفرصة التي ناجزها الجزار بأن تحلل من حبال الصداقة التي ربطها مع المتاولة في بداية حكمه، فجهز حملة لتأديبهم، وجمع المال الميري من ملتزمي المنطقة، لكن لم تخامر مشايخ جبل عامل الهواجس والشكوك بنيّة الجزار العارمة في القضاء عليهم، لمآرب كثيرة في نفسه كان أهمها إثبات ولاءه للدولة العثمانية الذي فيه تثبيت حكمه، فقرروا الانحناء للعاصفة التي قد تتسبب في تدمير ونهب بلادهم (Faqih, 1986) وانتهوا إلى السير إلى عكا للتباحث مع الجزار حول شروط الصلح، وتم الاتفاق على أن يدفع المتاولة في سنة 1776م، مبلغ مائة وخمسين (150) كيس ذهب، وأن يدفعوا مائة وخمسين (150) كيساً أخرى، خلال سبعة أشهر وثلاثمائة (300) كيس، خلال سنة 1777م، فوافق الجزار على ذلك، وطلب من زعماء المتاولة الاشتراك بقواتهم في الحملة الجديدة التي ينوي القيام بها على جبل الدروز، إلا أنهم اعتذروا عن ذلك (Al-Zain, Ali, Jabal Amel, 1973; Faqih, 1986). ووقفوا موقف الحياد من الحملة التي يزمع الجزار القيام بها، وهنا لا بد من السؤال لماذا اتخذ المتاولة هذا القرار؟ بما أنهم حلفاء الجزار في الأمس، وأصدقاؤه في الحاضر. وهي فرصة للثأر من أعدائهم التقليديين؟

يتفق كل من الزين والفقيه، في سبب رفض المتاولة، بعد موته، ويبدو أنهم قد مالوا إلى تصديق ما ساقه المتاولة من حجج بخصوص تخليهم عن أبيهم، أو أنهم وجدوا في المتاولة أهون الشرور لذلك لجأوا بعد مقتله إلى العامليين في ضيافة الشيخ ناصيف النصار هرباً من وجه العثمانيين(Turk, B.T). وهنا أعتقد أن أبناء ظاهر كانوا مضطرين لتصديق أية رواية يأتي بها المتاولة تفنّد أسباب تخليهم عنه، وذلك لأنهم رأوا في المتاولة الجهة الأقل مرارة ليلجأوا اليها، بعد أن أغلقت في وجوههم أبواب النجاة.

علاقة المتاولة بالجزار

عيَّن العثمانيون، أحمد باشا الجزار، والياً على عكا وصيدا بعد مقتل ظاهر العمر مباشرة، فبدأت علاقة الجزار بالمتاولة، منذ توليه حكم ولاية صيدا، حيث وقفوا إلى جانبه في حربه ضد علي الظاهر في شهر أيار 1776م، عندما تحصن في دير حنا(Brek, 1982; Al-Rikini, 1939). بعد ذلك، قام الجزار، بزيارة مدينة صور، مقر شيخ المقاطعة المتوالي. ويؤكد هذه الزيارة علي الزين بالقول: ''زار الجزار مدينة صور في أول سنة من سني حكمه، ونزل عند الشيخ، حمد العباس وهذا فيه من المعاني، ما يشف عنه، أن الجزار كان يحرص على تطمين المتاولة، وتوثيق الصلة بينه وبينهم''(Al-Zain, Ali, Jabal Amel, 1973). كما أن الجزار عمل على تأكيد هذه الصلة بزيارته الثانية إلى مدينة صور، واجتماعه مع الشيخ ناصيف النصار''(Al-Zain, Ali, Jabal Amel, 1973). ونلحظ من هذا، أن العلاقة بين الجزار والمتاولة، بدأت علاقة ودّيّة، تخللها رضى كل من الطرفين عن الآخر، بل وتعدت الرضى حينما قدم المتاولة المساعدة للجزار، في حربه ضد أبناء ظاهر.

كان الجزار يدرك بأن المتاولة، قوة لا يستهان بها، ولذلك حاول منذ البداية، أن يكسبهم إلى صفه شاءوا أم أبوا. ويؤكد ذلك سليمان بملاحظته التي جاء بها بالقول:'' كان بإمكان كل شيخ من المتاولة، أن يجند عند الحاجة، مائتين وخمسين إلى ثمانمائة (250-800) رجل، وإذا

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

ثم أن الأمير أفندي، قتل في سنة 1779م، فلماذا تذكر الجزار موقف ناصيف سنة 1781م. كما يروي الزين قصة أخرى، في أن السبب الرئيس للحملة على المتاولة هو: أن الجزار أراد الانتقام من الأمير إسماعيل الشهابي، حاكم حاصبيا، بسبب شكوى اليهود عليه، وعند مرور جيشه عبر بلاد المتاولة، تفاجأ به الشيخ ناصيف النصار، وتوقع أنه قادم لحرب المتاولة، فخرج على رأس ألف (1.000) فارس، للتصدي للحملة (Al-Zain, Ali, Jabal Amel, 1973). ولكن الضعف يشوب هذا السبب أيضاً، فكيف استطاع ناصيف النصار، أن يجمع بهذه السرعة، قوة مقدارها ألف فارس، بما أنه تفاجأ بعبور الجيش من بلاده. أما الرأي الأكثر وجاهة باعتقادي، فهو يكمن في رواية سليمان التي تقول: أن امتناع المتاولة عن دفع الميري، والهجمات المستمرة من قبل المتاولة على جيش الدولة، كانت السبب في إرسال الجزار لحملته إلى بلادهم (Suleiman, 1983). وأعتقد أنه هناك سبباً آخراً هاماً يكمن في رغبة الجزار الجامحة في إخضاع جبل عامل لسلطته خاصة وأن الجزار كان مطلع على أحوال المتاولة الذين كانوا يرفضون بشكل قاطع الخضوع للدولة أو ولاتها. أما بالنسبة لمجريات المعركة، فقد التقى جيش الجزار بقيادة سليمان باشا، بجموع المتاولة بقيادة الشيخ ناصيف النصار، في قرية «يارون» الواقعة ضمن بلاد بشارة، في 23/أيلول/1781م وقد انتهت هذه المعركة بمقتل الشيخ ناصيف النصار، وأخيه أحمد، وما يقارب ثلاثمائة إلى أربعمائة (300-400) من مقاتليه، في حين خسر سليمان باشا ثلث قواته (Brek, 1982; Kord Ali, 1983; Cohen,1973). ويصف «أرازي Arazy" قنصل فرنسا العام في صيدا هذه المعركة، في رسالة منه إلى الكونت دي فيرجين C. De Vergennes وزير الدولة، بتاريخ 2 تشرين الأول 1781 فيقول: "أن موت الشيخ ناصيف ونحو 400 من فرسانه مع عدد من المشايخ، وضع بضربة واحدة حداً لهذه الحرب، وذلك بتشتيت باقي المشايخ الذين وقع إثنان منهم في قبضة الباشا"(Ismail, 1975).

فر بعض المتاولة الذين سلموا من هذه الواقعة إلى بعلبك، للاشتراك في هذه الحرب، بأن الأسباب تنبع من: رغبة المتاولة بعدم العودة إلى حياة الكر والفر التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن الثامن عشر في جبل الدروز، وجبل عامل، كما أن الاشتراك في الحملة المرتقبة على جبل الدروز، تحتاج إلى نفقات باهظة ستؤدي إلى مضاعفة نفوذ الجزار على حساب المتاولة، إضافة إلى السبب الأقوى للرفض، وهو أن خضوع وولاء الدروز للدولة، سوف يوجه الأنظار إليهم فيما بعد (Al-Zain, Ali, Jabal Amel, 1973. and Faqih, 1986). كما أعتقد أن السلطة التي يمثلها الجزار كانت عائقاً في وجه المتاولة من الاصطفاف إلى جانبه، فقد دأبوا على الرفض المطلق للامتثال لأوامر الدولة العثمانية ووكلائها، وقد قبل الجزار عذر المتاولة على مضد، وذلك بسبب خوفه على قواته التي تنوي الزحف إلى جبل الدروز ليضمن عدم عرقلة سيرها، أو التصدي لها أثناء مرورها في بلادهم. ولكنه لم ينس هذا الموقف للمتاولة، فقد أرسل قواته سنة 1777م، الموجودة في بلاد الشوف للقبض على المتاولة في بعلبك وزحلة، ومصادرة أموالهم، وتجريم أعيانهم ومشايخهم. فألقوا القبض على محمد الحرفوش شيخ المتاولة في بعلبك، ووضعوه في الحبس، وداهموا زحلة، ونهبوها (Al-Munir, B.T; Kord Ali, 1983).

موقعة يارون.

استمرت المناوشات الجارية بين المتاولة، والجزار إلى أن جمع الأخير قوة قوامها ثلاثة آلاف (3.000) رجل، وجعلها بقيادة مملوكه سليمان باشا، ووجهها نحو بلاد المتاولة (Faqih, 1986). وتختلف الروايات في سبب إرسال هذه الحملة نحو بلاد المتاولة، فالزين يرى أن السبب في إرسال حملة الجزار إلى المتاولة هو: أنه عندما قتل الأمير يوسف الشهابي أخاه الأمير أفندي، خاف من نقمة الأهالي، ففر إلى عكا، وعند وصوله إلى بلاد المتاولة، التقاه الشيخ ناصيف النصار، وعرض عليه أن يسلمه بلاده، فوصلت الأخبار للجزار (Al-Zain, Ali, Jabal Amel, 1973). ولا يمكن قبول هذه الرواية التي تدفع الجزار لتجريد حملة كبرى باتجاه بلاد المتاولة بسبب إشاعة لا تقدم ولا تؤخر في العلاقة بين الطرفين

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

وأتباعه ينتظرون الفرصة الملائمة للتخلص من حكم الجزار، والعودة على حكم بلادهم بأنفسهم (Al-Rikini, 1939).

انتشرت إشاعات في بلاد عاملة بأن علاقة الجزار بالدولة العثمانية أصبحت سيئة، وبأن الباب العالي سوف يرسل حملة بحرية وبرية، لتدمير الجزار عام 1782م، وعند مرور إحدى البوارج التجارية الفرنسية، وبرفقتها سبعة عشرة (17) مركباً، من أعالي شواطئ مدينة صور، ظن العامليون أنها حملة القبطان المزعومة فأعلنوا العصيان على الجزار، وكان الأخير في هذا الوقت، يقوم بتفقد بعض المدن التابعة لحكمه، إلا أن قواته نجحت في هذه المرة، بتدمير نفوذ المتاولة تقريباً» (Al-Rikini, 1939; Basili & Constantine, 1989; Thomas, B.T)

بعد الدمار الذي لحق بجبل عامل، أقام الجزار أعوانه حكاماً على مقاطعاتهم وحكم تلك البلاد حكماً مباشراً مما رفع مكانته في أروقة البلاط العثماني(Faqih, 1986; Thomas, B.T). ويسلط العورة الضوء على الأذى الذي لحق بالمتاولة، بقوله: ''كان الجزار مجرداً سيف الظلم على المتاولة، يأخذ رجالهم على ورشة عكا(بالسخرة) فيحشرهم السائقون بسرعة الجري، وبسبب ضيق الطريق، كانوا يسقطون في البحر بالخمسين والستين'' (Al-Awra, 1936 and Suleiman, 1983).

شكل الشيخ فارس ناصيف النصار، وأخوته، وباقي المشايخ الذين فروا إلى بعلبك وعكا، فرقاً انتحارية، هدفها الإيقاع بعمال الجزار، والفتك بهم. كما كانوا يأخذون الميري من السكان بالقوة، وعرف هؤلاء باسم(الطياح)، أي قطاع الطرق (Al-Awra, 1936. and Suleiman, 1983). فأقام الجزار مراكز كثيرة مقابلة لها تدعى (السردله) وشحنها بالعسكر وأرسلها للبحث عنهم في بلاد عاملة، واقتصرت مهمة هؤلاء على الحفاظ على الأمن الداخلي لبلاد بشارة، لكنها كانت تعود خائبة ولم تتمكن من القضاء على الطياح، ثم عين الجزار عساكر من العاملين أنفسهم، ومع ذلك، حيث آل الحرفوش، والبعض الآخر إلى بلاد عكار (Al-Shihabi, 1954; Al-Rikini, 1939) وسبيت النساء، حيث كانت المرأة تباع بـ ثلث قرش(المنير، الدر المرصوف، ب.ت). ويصف الشهابي حال المتاولة بعد موقعة يارون بالقول: «بعد موت هذين البطلين (ناصيف وأخيه) هربت بني متوال وأخلوا البلاد، وتفرقوا في كل شعب وواد، وعساكر الجزار دخلت بلاد بشارة»(Al-Shihabi, 1954). وتقدم سليمان باشا إلى بلاد بشارة، لتحطيم القلاع السبع الرئيسة فيها والاستيلاء على مدينة صور (Al-Shihabi, 1954; Suleiman, 1983). فصمد الشيخ حيدر الفارس برجاله في قلعة الشقيف، وفشلت جهود سليمان باشا لاحتلال القلعة(Faqih, 1986; Marwa, 1967). وأمضى شهراً كاملاً في حصارها، ولم تستطع عساكر الباشا تحقيق أي مكسب، بسبب رداءة السلاح، وشجاعة المحاصرين الذين أبدوا بسالة في الدفاع عن أنفسهم، خشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ملتهم. وعندما طال الحصار على قلعة الشقيف، أرسل الشيخ حيدر الفارس إلى الجزار يعلمه بأنه مستعد أن يسلم القلعة له شخصياً، فسر الجزار لذلك (Faqih, 1986; Suleiman, 1983). وذلك لأن حصار قلعة الشقيف لفترة أطول، كان أمراً صعباً على الجزار، بحيث يكلفه نفقات باهظة، ويؤدي إلى تلاشي الهيبة والخوف اللذان أوجدهما اسم الجزار في المنطقة، خاصة بعد انتصاره على الشيخ ناصيف النصار. فحضر الجزار شخصياً إلى القلعة، في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام 1781، وتسلم القلعة من الشيخ حيدر الفارس (Faqih, 1986).

بدّل الجزار سياسته الخشنة، تجاه المتاولة، بعد الهجرات الجماعية التي قاموا بها من مناطقهم، واتخذ خطاً ليناً تجاههم، فقرب شيخ مدينة صور إليه وأقطع الشيخ حيدر الفارس وأتباعه، إقطاعاً ليعيشوا فيه ويكون لهم كملك (Al-Rikini, 1939). واتبع الجزار هذه السياسة السلمية، ليضمن تأهيل المنطقة بالسكان، وزراعة الأراضي الخصبة، إلا أن المتاولة، لم يرضوا بهذا الحال، ففر الشيخ حيدر وجماعته إلى دمشق، وظل شيخ صور

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

فخشي أن يستغل هؤلاء فرصة غيابه، ويتعاونوا مع الأمير الشهابي الحاكم للانتقام لما أصابهم على يد الجزار. فكتب للأمير يوسف لإرسالهم إليه، فاستجاب هذا لطلبه، وسلمهم إلى سليمان باشا نائب الجزار في عكا، ويقول الشهابي: ''قبض الأمير يوسف، على بني علي الصغير الشيعة وأرسلهم إلى عكا... وفي وصولهم إلى نائب الجزار، قتلهم، ولام الناس الأمير يوسف على ذلك'' (Al-Shihabi, 1969).

بعد هذه الحادثة هدأت الأوضاع في بلاد المتاولة، وسيطر الجزار على الأمور سيطرة تامة، إلى أن ظهر الأمير جهجاه الحرفوش في بعلبك، سنة 1788م، وكان هذا على صلة حميمة مع الأمير يوسف الشهابي، فاشترك معه في حربه ضد الأمير علي الشهابي في تشرين ثاني 1788م. مما اضطر الجزار أن يرسل المساندة إلى الأمير علي الشهابي، وجرت بينهم معركة في شهر أب/1789م، انتصر فيها الأمير علي وعسكر الجزار على الأمير يوسف وجهجاه الحرفوش (Al-Shihabi, 1969; Al-Munir, B.T; Chidiac, 1970) فتحصن جهجاه الحرفوش في بعلبك، فأرسل الجزار قوة للإيقاع به وأتباعه من المتاولة، بقيادة ابن عم جهجاه الأمير بشير الحرفوش. وحاصر هذا بعلبك مدة نصف شهر ولم يستطع دخولها فأمدهم الجزار بالعسكر، فهرب جهجاه (Al-Munir, B.T). ثم قام بجمع المقاتلين، وتوجه بهم إلى بعلبك، حيث مقر حكم أبناء عمه بشير وقاسم الحرفوش، حيث ولى الجزار بشيرا بدلا من قاسم، ليكون حاكماً على المدينة، واستطاع جهجاه دخول بعلبك، وقتل ابن عمه بشير، ونظم جهجاه صفوفه مرة أخرى. فجمع الرجال، وبدأ بمناوشة عسكر الجزار. ويقول المنير: ''في نهاية سنة 1791، جمع جهجاه الرجال .. ودخل بعلبك في منتصف الليل، ووزع الرجال في أرجاء المدينة، وعندما بدأ إطلاق الرصاص، ارتعب جيش الدولة، وظن أن هناك عدداً هائلاً من الجيش دخل المدينة، ففر معظمهم، وقتل الذين بقوا في المدينة''(Al-Munir, B.T). وقد حكم جهجاه بعلبك حتى سنة 1796، ثم أرسل الجزار العسكر للقبض عليه، إلا أنه استطاع الفرار، واللجوء إلى والي

لم يجد هذا الإجراء نفعاً (Faqih, 1986). استغل الطياح انغماس الجزار في قتال الشهابيين في الشوف. فزادوا من هجماتهم على القوات القليلة المتبقية في بلادهم، وتشجع الكثير من المتاولة الذين فروا إلى دمشق للعودة لشن حرب استنزاف على الجزار وقواته، فحضر حوالي ستمائة (600) فارس منهم، وشكلوا مع الطياح قوة مهاجمة، وانضم إليهم حوالي الألف من فلاحي جبل عامل (Suleiman, 1983).

بلغ المتاولة أن الدروز، عمدوا إلى حرب الجزار، فنظموا صفوفهم للأخذ بثأرهم من الدروز، وتوجهوا إلى قلعة تبنين، وأحاطوا بها، واقتحموها ، وقتلوا المتسلم فيها من قبل الجزار، وقتلوا معه مائتي (200) نفر0 (Al-Munir, B.T). وحينما وصلت الأخبار لمسامع الجزار غضب، وجلب قواته المنتشرة في جبل الدروز ووجهها نحو جبل عامل في منتصف عام 1784م وقصف أربع قرى عاملية، ودمرها تدميراً كاملاً. وتمكنت قواته من القضاء على الطياح، وبعد أن أعاد النظام إلى جبل عامل، ترك جانباً من قواته التي أرسلها إلى هناك للحفاظ على الأمن فيها، وسحب ما تبقى منهم، لاستخدامه في حملة جديدة على جبل الدروز (Faqih, 1986).

لم تستقم قناة المتاولة للجزار بعد كل تلك الحروب، فعندما تولى الجزار ولاية الشام سنة 1785م، توزعت قواته بين ولايات صيدا وطرابلس ودمشق، كما أخذ الكثير من العسكر برفقته لجمع الميري من نابلس، فوجد المتاولة أن هذه فرصتهم للقيام بالثورة مرة أخرى ضد الجزار، وقرروا أن يستهلوا مخططهم بالهجوم على صور، وذبح عساكر ومتسلم الجزار فيها، لكن سليمان باشا علم بالمخطط قبل تنفيذه، فاصدر أمراً إلى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين، وإرسالهم إلى عكا في أيار/1786م، فنفذ الجزار بهم عقوبة الإعدام (Faqih, 1986).

لجأ بعض المتاولة إلى الأمير يوسف الشهابي، وكان الجزار على وشك الخروج على رأس قافلة الحج الشامي،

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

والتحالفات السياسية العسكرية من منظور عصبي قبلي، كما اتضح في كنه العلاقة بين الدروز الشهابيين والمتاولة الشيعة، الشيء الذي دفع المؤرخين للقول بروابط الدم لا العقيدة. ولكنني أراني أميل إلى القول بأن المعتقد الديني أولاً والمصلحة ثانياً قد دفعتا باتجاه التجاذب أو التباعد بين المكونات الرئيسة لمنطقة جبل لبنان، ولم أجد ما يدحض هذا القول. فتكاد تجمع الروايات التاريخية بأن المتاولة لم يمتثلوا لأوامر السلطة الفعلية التي خضع لها جبل عامل والمتمثلة بالدولة العثمانية وولاتها أسوة بمن جاورهم من المسلمين السنّة، بل تمسكوا بأوامر ونواهي امرائهم وشيوخهم، وإن كان هناك تحالفات متوالية سنّيّة كما حدث مع ظاهر العمر، فمردها للفلسفة القائلة « عدو عدوك هو صديقك»، والبينة على ذلك هي تخلي المتاولة عن ظاهر العمر حينما انتفت المصلحة من التحالف معه، والانقضاض على كل قسم وعهد قطعوه له، ثم تركهم له ليواجه مصيره وحده. والأمر الآخر هو أن ذاك التحالف لم يكن لينعقد لولا أن ظاهر العمر ثار ضد الدولة العثمانية الغريم الأول للمتاولة الشيعة. ويبدو أن الجزار أدرك مبكراً، العلاقة الكائنة بين المتاولة والسلطة العثمانية السنية ومكوناتها، لذلك لم يصرف تفكيراً كثيرا في ضبط أمور جبل عامل، ولم ينتظر طويلاً للقضاء على نفوذ المتاولة، حيث هاجمهم بقوة وتمكن من إخضاعهم لحكمه عنوة. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الصورة التي خطت المشهد السياسي للعلاقة الجامعة بين المكونات الديمغرافية في جبل عامل ومحيطه ما زالت بحاجة إلى بحث وتمحيص خاصة أن أغلب الكتابات قد تشكلت، بداية، في المصادر والمراجع الشيعية بشكل عام والمتوالية خاصة، ثم ما ورد عند غيرهم من الملل الأخرى بعيداً عن رواية أهل السنة. وهذا ما يضطر الباحث في بعض الأوقات للأخذ بتلك الروايات لعدم توفر ما يدحضها.

References المراجع

Abdel Aziz, O. (1985). Muhadarat fi Tareekh Lebanon Alhadeeth, Beirut:Maktabet Beirut.

Abu Nahl, O.(1991), Zahir Al-Omar fi Palestine

الشام، ‘‘عبد الله باشا العظم‘‘، الذي أرسل لخُلع حكم بعلبك إلى الأمير جهجاه الحرفوش (Al-Munir, B.T).

استغل المتاولة الحملة الفرنسية للانتقام من الجزار حينما حاصر الفرنسيون عكا، فقدم مجموعة منهم، كان معظمهم من صفد، لمعاونة الفرنسيين في حربهم ضد الجزار بقيادة الشيخ صالح، أحد أحفاد ظاهر العمر(Nofal, 1990)، وقد ورد أيضاً أن من بين الذين قدموا إلى «نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte‘‘ من المتاولة أثناء حصاره لعكا، شيوخ المتاولة، فأعطاهم حكم بلاد بشارة، وأخذوا منه الذخائر، وساروا إلى قلعة صور التي كانت لآبائهم في السابق وتسلموها، كما كان بعض الأهالي يقدمون الخمر والبضائع للفرنسيين، على أمل التحرر من حكم الجزار (Al-Shihabi, 1954; Turk, 1993; Nofal, 1990). وحينما زحف ‘‘فيال Vial‘‘، أحد قادة بونابرت في 4/نيسان/1799 على مدينة صور، ساعده بعض المتاولة، فوصل إلى المدينة ووطد الأمن فيها، وأسند الحكم إلى المتاولة (Herold, 1962). وعندما انتهى حصار عكا من قبل الفرنسيين، سنة 1799م، انتقم الجزار من المتاولة، فأهلكهم بالقتل، والحبس، والحفر، والبناء (Al-Sabaiti, 1913).
ظل الجزار مسيطراً على بلاد المتاولة، والعمل على إبادة كل حركة تشير إلى ظهورهم في ساحة النزاع السياسي حتى نهاية حكمه 1804م، ويعلق بازيلي على هذا المشهد بالقول: ‘‘هكذا كانت تغادر القبائل والأسر، مسرح سوريا السياسي، واحدة إثر الأخرى، تاركة مكانها للتأثير المباشر لسلطة الحكومة، التي ترث أكثر التقاليد تجردا من الأخلاق‘‘(Basili & Constantine, 1989).

الخاتمة والنتيجة

وصلت الدراسة إلى نتيجة مفادها أن العلاقة المتوترة بين الدولة العثمانية السنّية، والدولة الصفوية الشيعية قد ألقت بظلالها على المنطقة العربية خاصة ذات التواجد الشيعي، الأمر الذي انعكس على علاقة المتاولة الشيعة بجيرانهم. وإن كانت الخلافات التي برزت على السطح تدفع باتجاه الأخذ بالتفسير الذي يتحدث عن التكتلات

and Ali Bak Al-Kabeer fi Egypt: a comparative historical study. Master Thesis unpublished, Cairo University.

Ahmed Reza. (1910). "Almtawla or Shiites fi Jabal Amel" Aluqtataf, Mg 36, Cairo.

Ahmed Reza. (1945). "Bano Amela" Majalet Al-Arfan, 31, p. 5, Saida.

Al-Awra, I. (1936). Tareekh welayet Sulaiman Pasha Aladel, Nasher Khoury Constantine Al-Mkhlasi, Matba'aet Dair Al-Mukhles, Saida.

Al-Badairi. (1959) Hawadeth Damascus alyoumyah 1154 AH / 1741 AD-1175 AH / 1762 CE, I 1, tanqeeh Mohammed al-Qasimi and tahqeeq Ahmed Izzat Abdel-Karim, the press of the Arab statement committee, Damascus.

Al-Ma'louf, I. S. (1908). Dawani Al-Qutouf fi Treekh Bani Maalouf. Baabda, Lebanon: Ottoman printing press.

Al-Munir, H. (B.T). The Aldur Almawsoof fi Tareekh Al Shouf, Taaleek wa Nasher Ignatius Sarkis, Manshorat Gros Press.

Al-Rikini, H. R. (1939). Jabal Amel fe qarn", Majalet Al-Arfan, 2928-29, Saida.

Al-Sabbagh, A. (B, T) - Al-Rawad Al-Zaher ri Akhbar Zaher, University Library of Jordan, No. 1359, Picture in Microfilm, p. 7, Sabbagh, Michael, Tareekh Al Sheikh Zaher Al-Omar.

Al-Sabbagh, M. (2012). Tareekh AlSheikh Zaher Al-Omar Al-Zaidani, Tahqeeq Khoury Constantine Al-Mukhlesi, Nuwabea Al-Fikr Lelnasher wa Altawzeea.

Al-Sabaiti, A. (1913). " Jabal Amel fi Qarnin", Majalet Al-Arfan, 5, 1, 1, Sidon.

Al Safa, M. J. (1981). Tareekh Jabal Amel. Beirut: Publications of the House of Language.

Al-Shihabi, H. (1954). Tareekh Ahmed Pasha Al-Jazzar, published and annotated by Antonios Shibli and Antanius Abdo Khalifa, Antoine Library, Beirut.

Al-Shihabi, H. (1969). Lebanon fi ahed Alumraa Alshihabien, C1, edited and published by Asad Rustom and Fuad Bustani. Beirut: Lebanese University Publications.

Al-Zein, A. (1973). lelbahth an tarekhna, bn, bm.

Al-Zain, A. (1973). "Jabal Amel fi ahed Aljazar", Majalet Al-Arfan, vol. 61, p. 8, Sidon.

Basili., & Constantine. (1989). Syria and Palestine tahat alhukum Ottomani, Tarik and Maarani. Moscow: Dar al-Takadam.

Brek, M. (1982). Tareekh Al Sham 1720-1782, tahqeeq Ahmed Spano, Dar Quteiba.

Charles-Roux. (1928). Les Echelles de Syria et de Palestine, au Xviii, Librairie Orientaliste Paul geuthner, Paris.

Chidiac, T. (1970). Ketab Akhbar Al;ayan fi Jabal Lebanon, 2 mg, Taaleek Fouad Bustani. Beirut: Publications of the Lebanese University.

Cohen, A. (B.T). Palestine in the 18th century: Patterns of government and administration, Jerusalem Manges Press and Hebrew University.

Farahat, H. (1981). Althulathy Al Ameli fi Aser Alnahda, Ahmed Reza, Suleiman Daher, Muhammad Jaber Al Safa. Beirut: Al Dar Al Alamya.

Faqih, M. T. (1986). Jabal Amel fi Altareekh. Beirut: Dar Aladwaa lelnasher.

Henri, L. (1921). La Syrie Precis Historique,Vol 2, Imprimerie Catholique, Beyrouth.

Herold, C. (1962). Bonaparte in Egypt, translation of Fouad Andraws. Cairo: Dar al-Kitab al-Arabi for Printing and Publishing.

ISSN : 2232-0474 | E-ISSN : 2232-0482
www.gjat.my

Ismail, A. (1975). Documents Diplomatique et consulaire Relatif At,Vol 2, Histoire du liban, Editions des oeuvres Politiques et Historiques, 12 vol., Beyrouth.

Kord Ali, M. (1983). Khutat AlSham, C 6. Beirut: Dar Al-Ilm lal malayeen.

Lokroui, E. (B.T). Aljazar Qaher Napoleon, Trgamet Georges Marra, Beirut: Dar al-Thaqafa

Marwa, A. (1967). Tareekh Jbaa Madeha wa Haderha, I 1, Andalus Lelanasher, Beirut.

Muhajir, J. (1989). Alhejra Alamlya ela Iran fi Alaasr Alsafawi, Beirut: Dar al-Rawda Lelnasher.

Nofal, N. A. N. (1990). Kashf Alletham an Mahya Alhokoma Walhokam fi eqlimai Egypt wa Alsham, Oghzah Gargari Trabelsi, and Tahqeeq Michel Abi Fadel. Tripoli: Gros Press.

Rafeq, A. K. (1993). Belad Alsham and Egypt mn Alfateh Al Ottomani ela Hamlet Napoleon Bonaparte, 1516 - 1798 AD, 1,, D.N, Damascus.

Rizk, R. (2005). Jabal Amel Tareekh and Hawadeth. Beirut: Dar Al-Hadi.

Suleiman. (1983). “mukawamet syaset Aljazar Altadmerya” (1775 - 1785) “Tareekh Alarab wal alam, Adad 55, Beirut.

Safi, K. (2005). Hakem Algalilee “Zahir Al-Zaidani” Almarkez Alqawmi lelderasat waltawtheeq, Gaza.

Terhini, M. (1983). “Jabal Amel and its Relation to the Lebanese Political Entity”, Majalet Al-Arfan, vol. 71.

Thomas, A. (B.T). Palestine in the Ottoman Period. Palestine: Arabic Publishing House.

Turk, N. (B.T). Hawadeth Alzaman fi Jabal Lebanon, Al-Assad Library.

Turk, N. (1993). Bonaparte Campaign to the East, Study and Achievement of Hope in Shor Tripoli: Gros Press.

Volney, M. (1972). Travels through Syria and Egypt: In the years 1783-1785, Vol. 2, G. and Robinson, London.

Yazbek, Y. (1983). Awraq Lebnanyah, 3 Maj. Beirut: Dar Alrayed leltebaa walnasher.